

الفصل الخامس

الثورة الإغريقية

إن الوطنيين الإغريق الستين ، الذين اجتمعوا في إبيدورس Epidaurus في اليوم الثاني عشر من يناير عام ١٨٢٢ ونادوا باستقلال الأمة اليونانية ، قد خلّدوا أسماءهم في صحف المجد والفخر في العالم أجمع ؛ وهم جديرون بهذه العبارة المنقوشة على جدران البانثيون Pantheon تمجيذا لذكري كثير من أبناء فرنسا العظماء : « إن الحضارة بأجمعها مدينة لهم بالشيء الكثير » ؛ نعم إنك قد تسمع الآن بعض الجدل عن الحدود الصحيحة لبلاد « الأمة اليونانية » التي أنشأتها تلك الثورة ، لكن تركية مصطفى كمال تدين بمبدأ القومية إلى حد يجعلها تشترك مع العالم في تمجيد الكسندر مفرو كرداتو Alexander Mavrocordato وزملائه ، وتشيد بمدح شجاعتهم ووحى أفكارهم .

أما في وقت قيام الثورة فقد كان الروح المسيطر على الغرب هو روح مؤتمر ويانة Vienna ؛ وكان مترنيخ Metternich لا يزال في إبان مجده ، كما كان ولنجنتن Wellington هو النجم الساطع في أفق السياسة البريطانية ، وكان ملك من آل بوربون Bourbon يستوى على أريكة فرنسا . وملاك القول أنه لما جراً الوطنيون على أن يتغنوا بنشيد الحرية ، تلك النعمة الناشئة في لحن أوروبا المتسق ، اصطكت لنفمتهم مسامع أسرة الدولة الأوربية .

والحق أن العالم الدبلوماسي في العقد الثالث من القرن التاسع عشر كان يخشى

أن يزداد نفوذ روسيا وسلطانها إذا نال الإغريق استقلالهم . ومنشأ هذا الخوف هو اعتقادهم أن انتصار المذهب الأرثوذكسي يضاعف هيبة قيصر روسيا . نعم إن الدعوة التي كان ينشرها أصدقاء الإغريق قد أثرت في عواطف القوم ، لكن الدهاة المسيطرين على سياسة العالم كان يدور تفكيرهم حول التوازن الدولي ، وكانت كثير من المهازل تدبر من وراء الستار كما تدبر مهازل هذه الأيام . وزاد عدد المؤتمرات زيادة جعلت جورج كاننج George Canning يجهر بقوله : « انتهت المؤتمرات والحمد لله »^(١) . لكنه قدر فأخطأ التقدير ، فقد كانت ثورة اليونان وغيرها من المشاكل سببا في عقد مؤتمر عالمي في فيرونا Verona في صيف عام ١٨٢٢ . وأدرك بيرون Byron أن مجهود هذا المؤتمر سيذهب أدراج الرياح ، ولذلك حيا انعقاده بهذه العبارة : « ما أغرب هذا المؤتمر الذي قدر له أن يضم شتات كل المتناقضات والأضداد ؛ ولا أعنى بقولي الملوك هؤلاء . كلهم سواء كأنما قدوا من أديم واحد ؛ وإنما أعنى من يسيطرون على هذه الشخصوس ويحركون تلك الأشباح ، أعنى اليهود والمؤلفين والقواد والمشعوذين . لقد اجتمع هؤلاء في صعيد واحد ووقفت أوروبا تنظر إلى جماعتهم كالمكسور في ذرعها » . وما أصدق ما قاله هذا الشاعر : ذلك بأن مترنيخ Metternich « أكبر أنصار القوة والمتطفلين على موائدها » قد آلى على نفسه أن لا تقال في الاجتماع كلمة ما عن استقلال اليونان . وكانت خطته تقضى بأن يسمح للمندوبين أن يتلاقوا في اجتماعات خاصة ، على أن لا تعقد اجتماعات رسمية ولا تصدر مراسيم جديدة^(٢) . وبلغ من حسن تدبيره وكرمه وبذله أن انفض مؤتمر فيرونا في الحادي

(١) نقلها فليب جودلافي كتابه « الدوق » طبعة هدر واستاتن سنة ١٩٣١ ص ٣٣٦ .

(٢) تاريخ اليونان السياسي من ١٨٢١ إلى الوقت الحاضر تأليف إدورد دريو طبعة مطابع جامعات فرنسا بباريس الجزء الأول ص ١٩١ .

والعشرين من نوفمبر ، والدول كلها راضية عما فعل ، والمشكلة اليونانية لم تحل .
وقد لخص مترنيخ أعمال المؤتمر في رسالة بعث بها إلى البرنس جيكا Prince Ghika في السادس من ديسمبر عام ١٨٢٢ بقوله :

« وبذلك استقر الرأي نهائياً على عدم التدخل في شؤون الدولة العثمانية ؛
وهذا عمل عظيم . ومما هو خليق بأن يخلد في تاريخ هذا العصر ، أنه لم يرتفع في
مؤتمر فيرونا صوت واحد للدفاع عن الإغريق ، بعد هذا الجدل العنيف وهذه
المناورات الدبلوماسية ، وبعد كل ما أثارته هذه الفتنة الحماء في كل الأمم
الأوربية كافة من قلق واضطراب »^(١).

وإذا حاولنا أن نتتبع الأدوار التي مر فيها كفاح الإغريق لنيل استقلالهم
لطال بنا المقال وخرجنا عن الغرض الذي نرمى إليه في هذا الفصل من الكتاب .
وحسبنا أن نقول إنه بينما كانت بلاغة الشعراء تصور ما حل ببلاد اليونان من
محن وقوارع ، وبينما الصحف تطبخ الترك بكل قبيح فيزيدها ذلك ذيوغاً
وانتشاراً ، وبينما الساسة ينادون صاحبين بضرورة الاعتراف باستقلال « الأمة
اليونانية » اعترافاً رسمياً فيزدادون في قلوب الشعوب حبا وإعزازاً ، بينما هؤلاء
وأولئك يفعلون هذا ، كان رجال الحكم المستولون جامدين لا يبدون حراكاً ،
وقست قلوبهم فلم يؤثر فيهم دعاء ، وأصموا آذانهم عن سماع صوت الحق والعدالة .
لكن اليونانيين ، وهم قوم مهرة بارعون وورثوا براعتهم عن آبائهم الأولين ،
استثمروا شكواهم وبلواهم في سوق سندات لندن ، فمقدوا لهم فيها قرضاً في حى
المال ، إذ استطاع اثنان من أبعد مندوبيهم نظراً وهما أرلندوس Orlandos ،
لوريوتي Lourioti أن يحصلوا من أولاد لومان وأبرين Loughman Sons and

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٤ .

O'Brien في ٢١ يناير سنة ١٨٢٤ على ٨٠٠٠٠٠ جنيه إنگلزي بفائدة ٥ ٪ ، إذا أضيفت إليها السمسرة والخصم ونحو ذلك ارتفع هذا السعر في قول بعضهم إلى ٥٩ ٪^(١) . لكن هذا لم يكن يهم ذينك الوطنيين لأنهما نالا بعقد القرض ما كانا يبغيان ، ونجحاً فيما لم ينجح فيه شعريرون وغناؤه ، إذ جعلاً لأصحاب المصارف والسماسرة مصلحة مالية في استقلال اليونان .

ويلوح أن أرلندوس Orlandos ولوريوتي Lourioti لم يسعيا للحصول على المال من الفرنسيين ، لأنهما كانا رجلين عمليين خبيرين بنفسية الشعوب ، ولا يريان من المصلحة أن تذهب جهودهما مع الريح ؛ بل استخدما ذكاءهما فيما هو مستطاع ، فجعلاهمها — وجعلت إحدى الجمعيات اليونانية الأخرى همها — أن يستفيدا أكبر فائدة من غرام الفرنسيين بالمجد والفخار . وهدهتهما قريحتهما إلى حصر مهمما في زينة الرؤوس التي أولع بها الفرنسيون ، كما يقول فيهم « لاروس الصغير الجديد » ، فعرضاً أن يجلس على عرش اليونان الذي لم توضع قواعده بعد رجل من أبناء فرنسا وهو اللوق ده نمور Duc de Nemours ، وهو أمير من بيت أورليان Orleans فرع آل بوربون Bourbons الجالسين على عرش فرنسا وقتئذ . ومع أن رئيس الحكومة اليونانية المؤقتة لم يرض لدهائه أن يقيد نفسه بهذا العرض ، فإن ذلك لم يمنع مجالس باريس من أن تعطف على قضية الحرية اليونانية ، لظنها أن استقلال اليونان قد يزيد في هيبة فرنسا ومجدها

لكن هذين الاعتبارين ، لغموضهما وعدم صراحتهما ، لم يثيرا في العالم الدبلوماسية حركة ما ؛ ولم تصخ أوربا بسمعها إلى نداء الوطنيين اليونانيين إلا بعد أن أصبحت قرصنتهم خطراً يهدد تجارة الأمم الغربية في شرق البحر الأبيض

المتوسط . وكان الأتراك قد تعس جدم في الحرب زمنًا ما ، لكن جيوش السلطان مع ذلك كانت أقوى من أن يفت في عضدها الثوار ؛ ولم يتفوق هؤلاء عليها إلا فوق متن البحار ؛ أما بلاد اليونان الأصلية فقد اجتاحتها الأتراك ، وبقيت الجزائر اليونانية وحدها بزعماء هيدرا Hydra ، إيسيزيا Spezia يخفق عليها صليب الأرثوذكسية .

وكان يسكن هاتين الجزيرتين شعب من البحارة المهرة ، يتراوح عدده بين خمسة وعشرين وثلاثين ألفاً ، يعملون في التجارة والملاحة ، جمعوا ثروة هائلة من تجارتهم مع بلاد البحر الأسود وشرق البحر الأبيض المتوسط . فلما شبت الثورة تدفقت هذه الأموال في خزائن الوطنيين اليونانيين ، فكان هؤلاء القوم يمدونهم بالمال ويجهزون السفن بالسلاح . وأظهر زعيمان منهم هما ميولس Miaulis ، كنارس Canaris ضروباً من البطولة كأنها لغرابتها من نسج الخيال . لكن ثروتهم وإن عظمت لم تكن لتبقى أبد الدهر ، بل سرعان ما نضب معينها ؛ كما أن المال الذي استدين من لندن نفذ بعد حين . أما الحرب فقد طالت ولم يخمد لظاها . وذلك بأن وطنية هؤلاء القوم لم تطفأ نارها حتى بعد أن أقوت خزائهم من المال . ولم يكن أمامهم لجمعه إلا سبيل واحدة هي أن يعمدوا إلى القرصنة يتخذونها وسيلة للخير العام . ومن ذلك نشأت قرصنة البحر الأبيض اليونانية ، وايدة الحاجة والوطنية ، وهي التي قال فيها اللفتنت دون Lieutenant Douin إنها : « التهمت أموال المحايدين لتملأ بها خزائن الثوار »^(١) .

وبدأت هذه القرصنة بداءة شريفة . ذلك أن أوربا كانت قد أعلنت

(١) نوراين (من ٦ يولييه إلى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧) لجورج دون . طبعة الجمعية الجغرافية الملكية في ١٩٢٧ ص ٣ .

حيادها في النزاع المتوقع قيامه بين « الأمة اليونانية » والدولة العثمانية . وسرعان ما أدرك اليونانيون ما ينطوي عليه هذا القرار من احتمالات ، فأعلنوا حصار الشواطئ التركية . ومع أنهم لم يكن لديهم أسطول ينفذون به قرارهم ، فقد كان هذا القرار حجة في أيديهم يستخدمونه في تنفيذ ما دبروه من قرصنة . « وتطورت الأمور تطوراً سريعاً » كما يقول تقرير رسمي أرسل إلى وزارة البحرية الفرنسية بتاريخ ٢٥ أبريل سنة ١٨٢٦ ، « فلم يمض إلا قليل من الزمن حتى قامت عصب البحار بضروب من القرصنة لم ير العالم ما يماثلها في الشدة والفظاعة »^(١) .

واتخذت هذه القرصنة أشكالاً مختلفة . وإذا كانت جزائر الأرخبيل اليوناني متقاربة لا يفصلها بعضها عن بعض إلا ممرات ضيقة ، فقد استطاع سكانها أن يشتركوا مع القرصان ، حتى استحال الشاطئ اليوناني كله مرتعاً لهم ومباءة للصوص ؛ وتوثقت الرابطة بينهم وبين رجال البحرية اليونانية الرسمية ، وأمعنوا في اعتدائهم إمعاناً جعل ده رني de Regny أمير العمارة الفرنسية يبالغ حكومته أن إحدى سفن القرصان المسماة Epaminondas التي أمسك بها متلبسة بجريمة القرصنة ، يمتلكها كندريوتس Conduriotis رئيس الحكومة اليونانية المؤقتة^(٢) ، وذكرت التقارير التي أرسلتها القنصلية الروسية بالقاهرة إلى سانت بطرسبرج Saint Petersburg ضروباً من اعتداء القرصان اليونانيين المتكرر على سفن الدول المحايدة^(٣) .

يقول المؤرخون في معرض الدفاع عن هؤلاء القوم إن الدين والوطنية هما اللذان جعلاً من هؤلاء الوطنيين قرصاناً ولصوصاً ، ولكن أصحاب السفن من

(١) نقله دون في المصدر السالف الذكر ص ٣ .

(٢) المصدر عينه ص ٥ .

(٣) قطاوى في رسالته السالفة الذكر ص ٦٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٩٥ ، ٩٧ الخ .

الإنجليز والفرنسيين وأهل سردينيا وروسيا لم يكونوا يبالون بهذا الجدل ؛ وكل ما كانوا يعرفونه أن متاجرم ضاعت ، وسفنتهم غرقت ، وأرواح بحارتها تعرضت للخطر ؛ وظلت قلوبهم قاسية لا تلين لدعاة النصرانية ، وأبواق الوطنية ، وعواطف أصدقاء اليونانيين ؛ حتى إذا ما تأثرت خزائهم شمروا عن ساعد الجد وأخذوا يصيحون حتى أقضوا مضاجع رجال الحكم في بلادهم ، وطلبوا إليهم أن يعملوا حيث يجب العمل للقضاء على هذا السلب والاختصاب . واتبع الدبلوماسيون خطتهم المألوفة ، خطة الهجوم في أضعف المواقع وأقلها مقاومة ، فصوبوا سهامهم نحو السلطان ، وطلبوا إليه أن يقضى على أعمال القرصان الإغريق .

قد لا يصدق القارئ هذه الأقوال أو قد يراها تهكاً منا وسخرية ؛ ولكننا نؤيدها بأقوال جورج كاننج George Canning الذي خلف لورد كاسلري على رأس وزارة الخارجية بلندن في سبتمبر من عام ١٨٢٢ ، والذي تقول فيه دائرة المعارف البريطانية : « إن مكانته السياسية يقوم معظمها على الخطة التي سار عليها في سياسته الخارجية في تلك السنين ، خطة عدم التدخل ورعاية حركات الحرية والقومية في أوروبا ، أو الأخذ بيدها ومناصرتها بالفعل » . ولم يكد كاننج يتهماً للعمل حتى اضطره موت كاسلري المفجأ للذهاب إلى مؤتمر فيرونا . وكان في قرارة نفسه يعطف على اليونانيين ، كما أنه كان رجلاً طيب القلب قوى الأعصاب ثاقب الرأي . وكان ابن عمه السير استرنفورد كاننج Sir Stratford Canning الذي أصبح فيما بعد الفيكونت استرنفورد ده ردكلف Viscount Stratford de Redcliffe سفير جلالة ملك بريطانيا في الأستانة ؛ وكان كلاهما صادق الرغبة في تحرير بلاد اليونان من نير السيادة التركية ، ولكن « جورج كاننج كان يشعر بأن موقفه الشريف — موقف الدفاع عن الإنسانية المعذبة —

لا يسعفه بالقوة اللازمة في المفاوضات المقبلة ، فعرض أن تكون الأسباب المادية القائمة على « سياستنا التجارية » هي المحور الذي تدور حوله المناقشات » .

ولذلك كتب وزير الخارجية البريطانية إلى ابن عمه يقول : « تقدم بها (الشكاوى التجارية) ولج فيها ، لأننا إذا كان لابد لنا من إثارة النزاع فعلينا أن نضم المصالح التجارية إلى جانبنا . وقد ظلت هذه المصالح حتى الآن تؤجل ويتغاضى عنها بعض الشيء ، إرضاء لخاطر روسيا ؛ فعليك الآن أن تتمسك بها » . وبعد أن أورد المترجم لحياة لورد استرنفورد ده رد كلف نص هذا الخطاب أضاف إليه قوله :

« وبلغت القرصنة حدا جعل الأمة مالكة السفن تتخذها بحق موضوعاً للشكوى والاحتجاج . ولكن أسوأ ما في الأمر أن أغلبية القرصان الكبرى كانت من الإغريق ؛ فلما بلغت الشكايات إلى الرئيس افندى أجاب هذا الجواب الطبيعي : دعونا نحمد نار الثورة القائمة علينا في بلاد اليونان ، وكفوا عن التدخل الأجنبي ومناصرة الثوار في الخفاء ، نقض على القرصنة فلا تعودون تسمعون عنها شيئاً » ^(١) .

فلما هبت أوربا لمهاجمة الأتراك تعزيزاً لمصالحها لا دفاعاً عن قضية تقرير المصير ، كان الباب العالي قد وطد سلطانه وأثبت تفوقه في البر . ولما لم تكن له من التجارة البحرية إلا القليل ، فقد كان ما يحدث في البحر قليل الخطر بالنسبة إليه ؛ وكان في استطاعته أن يرقب أعمال القرصان اليونانيين وهو رابط الجأش مطمئن البال إلى حد ما ، لأن أثر هذه الأعمال لم يكن يمس تركيا من قرب ، ولم

(١) حياة النائب المحترم استرنفورد كانتنج الفيكونت استرنفورد ده ردكاف تأليف استانتلي اين بول طبعة لنجان وجرين وشركائهما بلندن سنة ١٨٨٨ جزء ١ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

يكن يفهمه أولئك الأغبياء الذين يتولون الأمر في الآستانة . لقد كان علم الهلال يحقق فوق ربوع اليونان ، وذلك أهم ما كان يعنى به السلطان . وقصارى القول أنه لما خضعت الحكومة العثمانية للحاجة الغرب وإصراره ، واعتزمت أن تضيق الخناق على القرصان اليونانيين ، فعلت ذلك مؤتمرة بأمر أوربالكى تظهر البحار من الأخطار التي كانت تهدد سفن المحايدين .

ولجأت الآستانة إلى القاهرة تطالب إليها أن تتولى هي الأمر ، لا اعتقادها أن محمداً علياً قاهر الوهابيين لا يعجز عن قطع دابر فتنة الإغريق . ومن أجل ذلك عُين الباشا (سر عسكر) أى قائداً أعلى لجيوش الدولة . وكان قبل ذلك في عام ١٨٢٣ قد أرسل جيشاً إلى جزيرة كريد بقيادة صهره حسن باشا ، أما في هذه المرة فقد عقد لواء الحملة لابنه إبراهيم . ولم يكن محمد علي وابنه عند ما سيرا هذه الحملة يصدران في عملهما عن تعصب ديني ، بل كل ما في الأمر أنهما مسلمان ؛ وكما أن عامة المسيحيين تقريباً كانوا يعطفون على اليونانيين في مناجرتهم الأتراك ، فإن هذين الرجلين المسلمين كانا يشعران بالعطف على إخوانهما في الدين في ذلك الصراع الذي ظل قائماً عدة سنين ، وكانا ينظران إلى الثوار نظراً إلى القرصان السفاحين الذين يجب أن يعاملوا معاملة الخونة المارقين ، ويعتقدان صحة كل ما كان يرميهم به القناصل الأوروبيون في تقاريرهم المرسلة إلى وزارات خارجيتهم من اعتداء على المال وقسوة وسفالة .

ومما تحسن الإشارة إليه أن برناردن دروفتي Bernardin Drovetti ، قنصل روسيا وفرنسا بالإسكندرية وقتئذ ، أبلغ سانت بطرسبرج في الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٢٤ أن محمداً علياً صرح بأنه قد اعتزم أن يجعل اليونانيين ينظرون إليه نظر المحسن إليهم ، وأنه مقتنع بأنه سوف يستطيع أن يحمي ضرام الحرب

بالحسنى ومن غير أن يريق كثيراً من الدماء»^(١) . وأرسل هذا القنصل نفسه تقريرين آخرين إلى باريس وسانت بطرسبرج يرجو فيهما أن يتمكن الباشا من المحافظة على « نيافته الخيرة » ، ثم يقول دروشتى بعد ذلك « إنه ينوى أولاً أن يسلك طريق المسالمة والاعتدال قبل أن يلجأ إلى البطش والعنف »^(٢) . ولم نعتز بعد على أدلة رسمية تثبت أن محمداً علياً أو إبراهيم قد فقد أحدهما الأمل في كسب صداقة الإغريق ؛ ولكن لاشك أيضاً في أنهما لم يتركا الأور رهن الظروف والأقدار ، بل فعلا ما يفعل الرجال الحازمون العمليون ، فأفرغا مجهودهما في حشد الجيش والأسطول والاستعداد للكفاح . وسعى الباشا ليحمل صاحب الجلالة المسيحية ملك فرنسا على أن يمدّه ببعثة حربية فرنسية ، تساعد المسلمين المصريين على إخضاع اليونانيين المسيحيين ؛ فأرسل لهذا الغرض في صيف عام ١٨٢٤ رجلاً يسمى تورنو M. Tourneau ، وهو تاجر من تجار الإسكندرية ، وزوده بالأوامر اللازمة للاتصال بأولى الأمر في فرنسا .

فاستشار هذا الرسول القائد بليارد Belliard أحد النبلاء الفرنسيين والحائز رتبة Lieutenant General في الجيش الفرنسى ، فأحاله إلى الجنرال بوييه Boyer أحد الضباط الذين عملوا تحت قيادة نابليون في مصر والشام . وكان هذا الضابط الأخير على وفاق مع السيوديه قليل M. de Villèle الذى كان يقوم مؤقتاً بأعمال رئيس الوزراء الملك لويس الثامن عشر . وتألقت بالفعل بعثة عسكرية من الجنرال ليقرن Livron والكولونيل جودن Gaudin والكبتن أدولف Adolphe ، بولان ده تارل Paulin de Tarle ، شنثيل Cheneville وبوجول Pujol ، وضم

(١) قطاوى في كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٥٠ .

(٢) بعثة كريد والمورة (١٨٢٣ — ١٨٢٨) لشارل دريو طبعها بالقاهرة الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٣٠ في صفحتى ١١ ، ٢٣ .

إلى هؤلاء جراح وطبيب . ووافق الملك^(١) على إرسال هذه البعثة ؛ ولكن يلوح أن أمرها بقي سرا مكتوما ، لأنه لم يكن من حسن السياسة أن يعرف الفرنسيون أن ملكهم البربوني الكاثوليكي يعين دولة مسلمة على قهر أمة مسيحية .

وألحقت بالجيش المصرى أيضاً بعثة بحرية فرنسية ، أوفرت من الضباط البحريين الفرنسيين على أقل تقدير . وكان من بين رجالها المسمى لتلييه Letellier و بيمار Bompard ، شابير Chabert ، رينييه Reynier ، له دانتو Le Dentu دسنار d'Isnard ، مترير Matraire ، بريان Briand ، مافر Maffre ، لوسيانى Lucciani^(٢) .

وبذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أن فرنسا الرسمية كانت تشجع محمداً علياً على أن يحقق الإغريق ، مهما بلغ من عطف الرأى العام الفرنسى عليهم ورجائه الحار أن يحقق الله آمالهم ؛ مدفوعاً إلى ذلك بالصدقة اليونانية وحب المجد والفخار . ولا شك في أن دافعى الضرائب والناخبين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن هذه المعاونة الخفية التى كانت تقدم للمسلمين .

وكما كان آل بوربون يعينون الإسلام على النصرانية كانت الوزارة الفرنسية تعلم أن فى الجيش اليونانى رجالاً من الفرنسيين ، منهم الكولونيل فابشيه Fabvier وهو رجل فرنسى خدم تحت لواء نابليون إلى ما بعد موقعة ليبزج Leipzig ، ثم فى جيش لويس الثامن عشر فى أثناء المائة الأيام ، ثم اغتاز بعد ذلك من عودة آل بوربون وقاده قلبه إلى بلاد اليونان حيث رفعته كفايته إلى أن صار قائد القوات اليونانية النظامية ، وأصبح هو الروح المحرك لأداة الثوار العسكرية

(١) بعثة حربية فرنسية لدى محمد على لجورج دون طبعها بالقاهرة الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٢٣ ص ٢١ .

(٢) الفرقاطات الأولى من أسطول محمد على الذى سبقت الإشارة إليه ص ١١٢ .

في مبدأ أمرها . وكان ثمة فرنسي آخر في البحرية اليونانية هو الكابتن چوردن Jourdin ، ويكفي أن نذكر للقارى اسمه . نعم إننا لم نعثر على دليل يثبت أن الحكومة الفرنسية كانت راضية عن عمل فبقييه أو چوردن ، ولكن وجودها بين صفوف الإغريق يحتاج إلى إيضاح وتعليل .

أما إنجلترا فليس لدينا ما يثبت أنها كانت تتبع مثل هذه السياسة الخاتلة . على أننا قد عثرنا ضمن المراسلات التي دارت بين محمد علي وإبراهيم على خطاب مؤرخ ١١ نوفمبر سنة ١٨٢٤ يبلغ فيه الباشا ولده أنه جدد عقود بعض الضباط البحريين الإنجليز^(١) ، وإن لم يكن فيه ما يدل على أن هؤلاء الضباط كانوا من رجال البحرية الملكية ، أو أنهم قد انخرطوا في سلك البحرية المصرية . وأكبر الظن أنهم كانوا تجاراً بحريين استخدموا لنقل الجنود المصرية . وبين هذه المراسلات خطاب واحد ، إن لم يكن أكثر من خطاب ، يشكو فيه محمد علي من معاونة الإنجليز لليونان^(٢) . ومع هذا فجوردن ، الضابط البحري الفرنسي الذي سبق القول عنه بأنه كان يعمل في صفوف الثوار ، يتهم الإنجليز بالكيده لليونانيين ، لكنه لم يؤيد قوله بدلائل .

وأقلع الأسطول المصري من مياه الإسكندرية في التاسع عشر من شهر يولييه عام ١٨٢٤ ، وكان يتألف من إحدى وخمسين بارجة حربية وست وأربعين ومائة نقالة^(٣) . فأما البوارج الحربية فكانت بطبيعة الحال مصرية ، وأما النقالات فليس في استطاعتنا أن نعرف أى الأعلام كان يخفق عليها . وعندما

(١) مجموعة رسائل محمد علي طبعت بالقاهرة في المطبعة الأهلية سنة ١٩٣١ وثيقة رقم ١٦٠ .

(٢) المصدر السالف الذكر وثيقة رقم ١٧٠ .

(٣) حملة كريد والمورة ص ٢٣ .

أبحرت السفن لم تكن الآستانة قد استقر رأيها على من يعقد له لواء الحملة المشتركة .
 وكان بين الضباط ذوى الرتب العالية فى الأسطول المصرى رجل كرسىكى Corsican يدعى مارى Mari نبذ المسيحية واعتنق الإسلام وتسمى باسم بكير أغا ؛ ولكنه لم يوفق إلى أن يحسن النطق بالعربية أو يتخلى عن لهجته الكرسىكية فى نطق اللغة الفرنسية . وكان من بين رجال القوة المصرية أيضاً سليمان باشا الفرنسى ذى الشخصية الرائعة ، وأصله من مدينة ليون Lyons . أما بقية الضباط الفرنسيين فلم ينضموا إلى الحملة إلا بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت .

وكان إبراهيم وقتئذ رجلاً مملوء الجسم ، قصير القامة ، كبير المقلتين ، براق العينين ، على الجبهة ، أصداً للحية ، تبرز شعراتها من وجهه علته كثير من آثار الجدري . وكان رغم قصره وامتلاء جسمه ، تبدو على مظهره كله دلالات النشاط والذكاء وحب المغامرة والرغبة فى الإفادة ^(١) . وقد وصف شخصيته كاتب عرف صفاته كلها دون واسطة وصفاً مفصلاً فقال :

« هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ، أمره مطاع ، ثابت قوى العزيمة ، شجاع رحيم لين المريكة ، لكنه شديد الحرص على النظام لا يرضى أن يعمل أحقر رجل فى جيشه ما لا تطاوعه نفسه هو على عمله . يطيعه الناس ويخشونه أكثر من سواه ، لأن فى يده العقاب ؛ ومع ذلك التفت حوله قلوب جنده ... وإذ كانت الرتب العالية لا تتعارض فى نظر أبناء العرب مع الصراحة فإن الجند كثيراً ما يطمعون على أسرارهم الخاصة . وكنت تراه فى الحروب الأخيرة دائماً اليقظة لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الناس بسرعة تنقله بين الجند دون أن يشعروا به ، لا يحيط به فى تنقله سوى أربعة أو خمسة من رجاله .

(١) لين بول فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٦٩ .

وكثيراً ما كان ينام على الثلج في العراء ليضرب بذلك الثلل لغيره . وهو حذب على جنوده ، يعطف عليهم ويحادثهم ، ويصغى إلى قصصهم ، ويبث في قلوبهم الشجاعة ، ويشاركهم في شعورهم واجتماعهم ، ويجلس معهم في مضاربهم كأنه واحد منهم ، ولكنه لا ينسى قط مقامه ، ولم يعرف عنه أنه ضحى يوماً بشرفه فسفك دماء أحد في ساعة من ساعات غيظه . ولما كان إبراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج سريع الغضب ، فإنك تراه أحياناً إذا استثير يمشى ذهاباً وجيئة ، ويشتم السعوط ويطلب قصبة التدخين كأنه يهدى بهما أعصابه قبل أن يصدر أوامره ^(١) .

ثم يقول هذا المؤلف نفسه : « وتراه في ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر أو ثارت عليه القبائل من حوله ؛ يبث في جنوده روح الشجاعة والإقدام ، ويضرب لهم بنفسه خير مثل في البسالة وخوض الغمرات ؛ وكثيراً ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يبث له من المصايد وينصب له من المكائد ... لكن الجيوش كلها لا تخلو من الساخطين ولم يسلم خير القواد وأعقلهم من أعداء مخادعين في معسكرهم . وخليق بنا أن لا نحكم على إبراهيم بما يقوله فيه الفرنسيون الواجدون عليه الجاحدون لنعمته ، وأن نستشعر الحذر حينما نقرأ ما كتبتة عنه بعض الجرائد الأوربية . وليس معنى هذا أن إبراهيم كان معصوماً من الخطأ ؛ كلا فإن له أغلاطه ؛ ولكنه لم يكن بالرجل الجلف ولا الهمجي الجاهل المتلف على المعالي . ولولا جهود إبراهيم لما استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز . وأعلم الناس بذلك هو محمد علي نفسه » ^(٢) .

(١) ياتس في كتابه السالف الذكر الجزء الثاني ص ١٧٤ .

(٢) المصدر عينه الجزء الثاني ص ١٧ .